الفلسفة الوضعية وإشكالية التمييز بين الفلسفة والعلم

د. براهيم أحمد

جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم الجزائر

الملخص:

الفلسفة والعلم سيظلان دوما مصدرين أساسيين للمعرفة، كل بطبيعته وطريقته ومجاله، وتكمن أهمية طرح هذه المسألة من خلط الكثير من المثقفين وطلاب العلم بين هذين المجالين، وبالتالي ربما يخلطون بين الأمر المحسوم والأمر غير المحسوم، بين الثابت والمتغير، بين ما يقبل النزاع والجدال والاختلاف، وبين ما لا يقبل النزاع والاختلاف، ونحن نعني بالعلم ما هو قطعي لا خلاف عليه، ونعني بالفلسفة كل موضوع وقضية ما زالت موضعا للرد والقبول، ومن هنا كان لا بد من بيان مساحات الاتصال والانفصال بينهما. العلم نشئ في أحضان الفلسفة وترافقا دهرا طويلا من الزمن، وما زال هناك من يصر على الخلط بينهما في محاولة لتغيير طبيعة الفلسفة على نحو يتوافق مع العلم وقواعده ومسلماته ومعادلاته.

إذ يختلف التناول الفلسفي عن التناول العلمي، وإذا كان الأمر كذلك فلا شك أن طبيعة المعرفة الفلسفية النابعة من تلك المعالجة تكون مختلفة عن تلك التي تنبع من معالجة أخرى.

من هنا تحاول هذه الدراسة أن تتناول هذه العلاقة الجدلية بين الفلسفة والعلم من منظور الفلسفة الوضعية، فيا ترى ما هو الطرح الذي تقدمه هذه المدرسة لحل وفك هذا النزاع المحتدم لإشكالية التمييز بين الفلسفة والعلم؟

إن الموقف الوضعي المتعلّق باختلاف الفلسفة والعلم قابل للتبرير تماما، بل نعتبره أحسن سند فكري للتأمل في فكرة الاختلاف هذه ولتحليلها. لكننا نطمح

إلى رؤية المسألة من زاوية أخرى سكت عنها المنطوق الوضعي الرسمي، وهي زاوية مدى اختلاف هذه الأصول المميزة للفلسفة عن العلم.

إذ أن تـــاريخ الفلسفة يؤكد ما قاله الوضعيون بخصوص عقلانية موضوعات الفلـــسفة ومناهجها، فالفلسفة بحثت وتبحث قي أسس الأشياء ومبادئها، أي في العلـــل على حد تعبير الوضعيين، فهي تهتم بأسس الأخلاق ومبادئ المعرفة.. الخ. فقـــد اهـــتم **كانط** بميتافيزيقا السلوك في كتاباته العلمية مثل **نقد العقل العملي**، واعـــتنى بميتافيـــزيقا المعـــرفة في كتاباته النظرية مثل **نقد العقل الخالص**. وحدّد **أفلاطون** من ناحيته ماهية العدل في **الجمهورية**، وأبرز **هيغل** حقيقة الحق في **فلسفة الحق**... إلخ.

إن الفلـــسفة والعلـــم سيظلان دوما مصدرين أساسيين للمعرفة، كل بطبيعته وطـــريقته ومجالـــه، وتكمـــن أهمية طرح هذه المسألة من خلط الكثير من المثقفين وطلاب العلم بين هذين المجالين، وبالتالي ربما يخلطون بين الأمر المحسوم والأمر غير المحسوم، بين الثابت والمتغير، بين ما يقبل النـــزاع والجدال والاختلاف، وبين ما لا يقـــبل النـــزاع والاختلاف، ونحن نعني بالعلم ما هو قطعي لا خلاف عليه، ونعني بالفلـــسفة كل موضوع وقضية ما زالت موضعا للرد والقبول، ومن هنا كان لا بد من بيان مساحات الاتصال والانفصال بينهما.

إذ نعـــتقد في البداية أن التناول الفلسفي يختلف عن التناول العلمي، وإذا كان الأمـــر كـــذلك فلا شك أن طبيعة المعرفة الفلسفية النابعة من تلك المعالجة تكون مختلفة عن تلك التي تنبع من معالجة أخرى.

ولا شك أن من جملة العلاقات المهمة بين العلم والفلسفة أن تطور كل منهما يعـــتمد على تطور الآخر، فتطور الفكر الفلسفي ارتبط إلى حد كبير بتطور العلم، ولو أننا رجعنا إلى بعض محاورات أفلاطون لتحققنا من أن اكتشاف الفيثاغورثيين لـــبعض الحقائق الرياضية قد كان أصلا من الأصول الهامة التي صدرت عنها نظرية أفلاطـــون في المـــثل، ولا نرى أننا في حاجة إلى القول بأن فلسفة ديكارت مدينة بالكـــثير مـــن أصولها لما وصل إليه العلم على يد غاليلو وبعض معاصريه، والأمر بالنسبة للعلم واستناده على الفلسفة أوضح من ذلك بكثير، لأن جميع العلوم نشأت في أحضان الفلسفة، ومن أهم وظائف الفلسفة رعايتها للعلوم في أطوارها الجنينية.

ولا شك في أن القول باختلاف الفلسفة والعلم السائد اليوم له ما يبرره، لكنه يدفع في الحقيقة الباحث المتأمل فيه إلى محاولة الكشف عن الروابط الممكنة بين هذين النمطين المعرفيين، وهذه العلاقة المحتملة لا تخرج عن العنصرين التاليين:

أ – التأثير والتأثر.

ب – التشابه والتجانس.

والصلة بين المستويين مؤكدة، إذ أن الحوار غير جائز بين الأجناس المختلفة تماما، فلقد تأثرت الفلسفة بالعلم، إذ يمكن تفسير المثالية الكانطية انطلاقا من التصور النيوتيني لحساب التفاضل والتكامل. وهذا يعني طبعا تأثير العالم الإنجليزي في الفيلسوف الألماني، لكنه يدل أيضا على حاجة **نيوتن** إلى فلسفة مثل: المثالية الكانطية لتأسيس رياضيات اللامتناهي وعقلنتها (بشتة، ع: 2002، 5).

ونحن لا نتذكر فلسفة واحدة لم تنطلق من الفكر العلمي إيجابيا أو سلبيا. فإن أسس **كانط** نظريته المعرفية على "إيجابية" الرياضيات النيوتنية (كما فعل "أفلاطون من قبله بالنسبة إلى رياضيات عصره)، فإن نقطة البداية عند "بركلي" "Berkely" "وهيوم" "Hume" كانت نقد العلم (بشتة، ع: 2002، 5).

ومن جهة أخرى قد تأثر العلماء بالفلسفة، وقد اعترف "**نيوتن**" نفسه بتأثير الفلاسفة فيه، وهو يخص بالذكر في هذا الصدد "أفلاطون". وبصفة عامة فالفلسفة ضرورية لعقلنة العلم ولضمان انسجام نتائجه.

انطلاقا من هذا، نجد المدرسة الوضعية ممثلا بـ: "**أوجست كونت**" "Compte" و"**هانز ريشنباخ**" "H. Reichenbach" تقر باختلاف الفلسفة والعلم (ويمكن اعتبار هذا الاتجاه خير سند فني للقول بالاختلاف). لكن الوضعيين تحرّكوا، في الحقيقة، في مجال الخصوصيات والاختصاصات (وهو دائما الميدان الملائم لرصد الفروق) (بشتة، ع: 2002، 6).

حيث يقصد الوضعيون بالفلسفة المختلفة عن العلم الميتافيزيقا، أو الفلسفة التقليدية، أي فلسفة "**أفلاطون**" و"**كانط**" و"**هيجل**" وغيرهم. ويقابلونها بـ: "الفلسفة الوضعية" التي قال بها "**كونت**" بـ: "الفلسفة العلمية" التي طرحها "**ريشنباخ**" مثلا ودافع عنها. والفلسفة، وضعية كانت أو علمية، هي نوعية فكرية تتخذ من العلم نموذجا لها، أما العلم فهو بالنسبة إلى الوضعيين أساس الفيزياء

الرياضية، وما حذا أحذوها من المعارف البشرية مثل الكيمياء وعلوم الحياة والعلوم الإنسانية (إذا ما قبلنا حشرها في مجال العلمية) (Raquel, C: 1998, p. 12).

فلقد حاول فعلا بعض الفلاسفة تحويل الفلسفة إلى علم، ومن هؤلاء "**هيجل**" الـــذي قال: «إن الأمر الذي عقدت عليه العزم هو المشاركة بجهدي في أن تقترب الفلـــسفة من هدفها وتتمكن من طرح الاسم الذي توصف به وهو حب العلم من أجـــل أن تصبح علما حقيقيا» (هيجل، ف: 1986، 125). ولكن هذا الأمل يبدو مستحيل التحقيق، ولا ينتج من هذه الجهود إلا رأي فلسفي آخر دون أن يكون له أثـــر يذكـــر في إحداث تغيير حقيقي قابل للذكر في هيكل وبنيان الفلسفة، ولأن طبيعة الفلسفة أنها تناقش قضايا غير محسومة فكيف يمكن أن تكون علما؟!

إن الفـــروق والاختلافات الجوهرية بين العلم والفلسفة كثيرة متنوعة حسب **كونت وريشنباخ** يمكن تلخيصها على النحو التالي:

1. يـــستهدف العلـــم وصف الظواهر وكيفية حدوثها، أما الفلسفة فهي تحاول تفسير ما وصل إليه العلم، إذ العلم وصفي والفلسفة تفسيرية.
2. العلم موضوعي وتجريبـــي والفلسفة ذاتية شخصية أو تأملية ونظرية – مقارنة بـــالعلم – وهـــناك مقدار معتبر من الموضوعية في الفلسفة أيضا. ولكن يجب التأكـــيد علـــى عدم إمكانية تجرد العقل تماما عن الشخص وميوله ونـــزواته، وخلفيته الثقافية في الفكر الفلسفي، في الوقت الذي بالإمكان إخضاع الأبحاث العلمـــية لقياســـات ثابتة وتجارب معملية يمكن تكرارها للوصول إلى النتيجة نفـــسها في كـــل مرة، مما يدل على انفصال معطياتها عن الشخص الذي يقوم بـــتلك الأبحاث والتجارب، والعلم لا يعتمد مثل الفلسفة على العقل فقط وإنما على التجربة والملاحظة وغير ذلك.
3. العلـــم إمبريقي، حدوده حدود العالم المحسوس، أما الفلسفة فهي تتجاوز تلك الحدود إلى ما فوقها، وهي التفكير الثاني على حد تعبير بعض الفلاسفة.
4. الأحكـــام العلمـــية أحكام تقريرية، بمعنى أنها لا تقرر أكثر مما هو موجود في الواقع الخارجي، أما الأحكام الفلسفية فبعضها معياري، وبعضها فردي لا يعبأ بمـــا عليه الواقع، وبما أن العلم يقف في حدود ما هو كائن ولا يتطرق إلى ما ينبغـــي أن يكون فإنه عاجز عن استخلاص (قيم) من هذا الواقع الذي يقرره

ويدرسه، ولهذا لا يرجى منه أن يعالج موضوع السلوك البشري، والذي هو من أهم موضوعات الفلسفة، لأن الفلسفة تتناول ما وراء الواقع، وما وراء المحسوس والفيزيقا، وتتصدى لقضية الأخلاق والقيم، وتعالج الواقع ليس لتقريره على ما هو عليه، بل لتغييره إلى الشكل الذي ينبغي أن يكون عليه في ضوء قيم الحق والخير والجمال.

5. العلم يبحث عن العلل القريبة المباشرة، والفلسفة تبحث عن العلل البعيدة، التي هي وراء تلك العلل القريبة أو فوقها. وهذه الخاصية نابعة من تجريبية وتقريرية العلم، لأن العلة القريبة هي التي تخضع للاختبار والتجربة، وأما البعيدة فلا ينفع معها ذلك.

6. العلم جزئي والفلسفة كلية، لأن الفلسفة تدرس الوجود من حيث هو وجود كلي عام، ولا تهتم بالجزئيات والتفاصيل، أما العلم فله في كل فرع وموضوع تخصص جزئي محدود. وكلما تطورت العلوم كلما تحدد موضوع البحث وسار نحو الجزئية والدقة والانحسار.

7. إن العلم يتبنى في أي مجال مجموعة مسلمات لا جدال فيها، ولكن الفلسفة لا تعترف بالمسلمات إلا إذا ثبتت بالبرهان العقلي، وذلك محدود جداً فيها، والعقل دون الحس هو الأساس في الفلسفة.

8. العلم منفصل عن تاريخه، أو لا يشكل تاريخه جزءاً من حاضره، بخلاف الفلسفة فإنه لا يمكن تجاهل تاريخها، لأن تاريخها جزء منها (Angéle, K: 1982, p. 136).

لكن الرجلين يتفقان على إعطاء معنيين دقيقين للعقل والتجربة في العلم يساعد ضبطهما على توضيح مفهوم العلم عند الوضعين وبالتالي على بلورة منطوق الوضعيين المتعلق بالمناهج. لذلك يتوجب علينا القيام بهذا الضبط حتى نصل إلى فهم أكبر للموقف الوضعي المشترك.

يبرز كونت الاختلاف بين الفلسفة والعلم على مستوى نوعية النتائج في نصوص كثيرة لعل من أوضحها ما يمكن أن نقرأه في خطاب حول الفكر الوضعي Discours sur l'esprit positif حيث يذكر معاني كلمة "وضعي" (Aprousse, P: 1974, p. 58).

تعـــني لفظة وضعي (Positif) عنده ما هو يقيني مقابل ما هو غير يقيني وغير مثبت. وهكذا، فهي تدل على قدرة الفكر الوضعي على إدخال الانسجام المنطقي عند الفرد والوحدة الروحية في النوع الإنساني. وهذا الاستعداد الكامن في الذهنية الوضـــعية يتناقض مع تلك الشكوك التي لا حد لها وتلك المناقشات التي لا تنتهي. ومع العلم بأن تلك الشكوك والمجادلات العقيمة أوجدتها، حسب كونت، الفلسفة التقليدية السقراطية، أي الميتافيزيقا.

واضـــح من هنا، بأن الأمر يتعلق باختلاف الفلسفة الكلاسيكية، أي فلسفة أفلاطـــون وأرســـطو وكانط وغيرهم، والعلم بمعناه الوضعي على مستوى نوعية نـــتائجهما. وفي هذا الإطار يمكن أن نستنتج أساسا من أن النتائج الفلسفية تختلف عـــند كـــونت عن النتائج العلمية. إذ أن الأولى غير يقينية، وهي محل مضاربات عقيمة ومتواصلة، بينما تتسم الثانية بالثبوت واليقين. هذا واليقين يعني فقط هنا ما هـــو محـــل إجماع وليس السرمدية والمطلق. فأبوا الوضعية لا يمكن أن يقرّ بوجود نتائج يقينية يقينا مطلقا ونهائيا.

إذن الأمر جليّ تماما بالنسبة إلى **كونت**، فالنتائج العلمية هي نتائج يقينية بمعنى أنهـــا تفـــرض الإجماع بين الناس في حين أن هذه النتائج الميتافيزيقية لا تفرض أي إجماع، وهي على عكس ذلك محلّ تناقضات ومضاربات بين الفلاسفة والمتفلسفين .(Arnaud, P: 1973, p. 111)

ويـــبرر **ريشنباخ** من ناحيته اختلاف النتائج الفلسفية والنتائج العلمية. ولعل أوضـــح نصّ له في هذا المجال ما هو موجود في كتابه **نشأة الفلسفة العلمية**، يقول **هانـــز ريـــشنباخ**: "إن فيلسوف القرن العشرين ينبغي أن تكون لديه الشجاعة للاعتـــراف بالحقيقة الواضحة، حقيقة أن الفلسفة كانت عاجزة عن تطوير مذهب مـــشترك يمكـــن تعليمه للطلاب ويحوز الرضا العام من جانب كل الذين يقومون بـــتدريس الفلسفة. ويعرف الذين قاموا منا بتعليم واحد من العلوم ما يعنيه التعليم علـــى أســـاس مشترك. لقد طوّرت العلوم جسما عاما من المعرفة، يتمتع باعتراف كلّـــي. وذاك الذي يقوم بتدريس علم ما إنما يفعل ذلك بالشعور الفخور بتعريف تلامـــيذه على عالم من الحقيقة الثابتة. فلماذا يتعيّن على الفيلسوف أن ينبذ تدريس حقيقة ثابتة؟" (ريشنباخ، هـــ: 1979، 172).

وفي هـــذا الـــصدد يمكـــن أن نلاحظ بأن كونت ميز بكل اعتناء بين نوعية الموضوعات الميتافيزيقية ونوعية الموضوعات العلمية، إذ "يدل لفظ وضعي (positif) أولا، حسب معناه القديم والشائع، على ما هو واقعي مقابل ما هو خيالي... وهو يعـــني ثانـــيا، بمعنى قريب من الأول، التناقض القائم بين ما هو مفيد وما هو عديم الفائـــدة... وفي هذه الحالة فهو يتضمن تذكيرا للفيلسوف بأن مصير كل تأملاتنا يجـــب أن يكون في اتجاه التحسن المستمر لوضعنا الحقيقي، الفردي منه والجماعي، عوضـــا عن إرضاء لا طائل منه لفضول عقيم". ويستطرد **كونت** مفرقا بين الفكر الوضعي والميتافيزيقا (أي بين الفلسفة والعلم)، فهو يميز فيما ذكر بين الموضوعات الفلسفية والموضوعات العلمية. فالأولى خيالية وغير مفيدة، بينما يتسم النوع الثاني بالواقعية والنفعية، إذ أن لفظ وضعي (positif) يرادف عند الكاتب ما هو واقعي (Réel) ومـــا هو مفيد (Utile). والواقع الحسي هو المقصود عند كونت لا الواقع الفكري الذي قال به **أفلاطون**. (Comte, A: 1974, p. 95).

لا يعـــتني الفكر العلمي الوضعي بأصل الكون ومآله، ولا بعلل الأشياء، بل يهـــتم بالظواهر الداخلية بربطها مع أحداث عامة، أي بسن قوانين تكون حالات خاصـــة فـــيها. وفي الحقـــيقة، إن هذا النص مكمل للأول. فالعلم يستمد واقعية موضـــوعاته ونفعيـــتها من كونه يبحث في الظواهر والوقائع الحسية. أما الفلسفة فموضوعاتها متعالية وميتافيزيقية، تهتم بالمنطق وبعلل الأشياء ونهايتها.

ويعتـــبر **رايشنباخ** أن الفلسفة باختصار تفسر مثل العلم، لكن التفسير الفلسفي يخص أسئلة لا علاقة لها بالمجال الحسي (ولا يمكن **لرايشنباخ** أن يقبل الواقـــع العقلـــي بـــالمعنى الأفلاطـــوني) إن التفسير العلمي هو أسير الواقع وسجين الحس... والفلسفة، تأملية تجريبية، تبحث بنظره في أسس الأشياء (أي بلغـــة **كونت**: في الماهيات والعلل وتمثل بنظره مادة تفسيرها وتعميمها). و**رايـــشنباخ** يـــنقد بـــشدة في هذا الصدد الأنطولجيا كونها تعتني بالأسس .(Kolakowski, L: 1976, p. 92)

وتـــبحث الفلسفة عند **ريشنباخ** بمختلف أنواعها في المطلق (الذي هو عين العقل والتأسيس)، في حين أن العلم المعاصر **(لريشنباخ** طبعا) قد طلق المطلق ثلاثا. والفلـــسفة المـــتجهة نحـــو المطلق بكل قواها أنموذجا لها لأنها تربط المطلق بالفكر

الرياضـــي، أمـــا العلم الملتصق بواقع الرياضيات وبتطورها فلا يمكن أن يجعل من الرياضيات مصدرا وينبوعا للمطلق (laugier, S: 1974, p. 95).

وفـــيما يخـــص بحثـــنا، يجوز القول إن الفارق الحقيقي بين البحث الفلسفي والبحث العلمي هو فارق منهجي بالتأكيد. فمصدر عقلانية الموضوعات الفلسفية هو عقلانية المناهج الفلسفية، وواقعية الموضوعات العلمية متأتية من واقعية المناهج العلمـــية. وفعـــلا فقـــد أكد الوضعيون على وجود فروق منهجية بين العلم على المستوى المنهجي.

يعـــرض **كـــونت** في هـــذا قانون الوضعية للمراحل الثلاثة وهي: اللاهوتية، الميتافيزيقا أو الفلسفة التقليدية والفكر الوضعي أو العلم. وبخصوص الفلسفة يقول **كـــونت** أنهـــا تختص بالتجريد (**abstraction**) ويتصور الأشياء (**conception**) وهـــذا يعني، إن أردنا ترجمة وظيفة ميتافيزيقا المنهج بلغة لا يرفضها **كونت** أن هذا الـــنمط المعرفي يتسم بالعقلانية كوسيلة عمل وبحث أما المعلم الوضعي الذي تمكن مـــن التخلص مما يكبل الفكر الفلسفي والبحث في المطلق في طبيعة الأشياء، فهو يركب خلال تحركه المنهجي بين العقل والتجربة. إذ يقول **كونت** في هذا الصدد:

"الارتباط فقط بالكشف عن القوانين الحقيقية للظواهر يعني علاقات التلاحق والتـــشابه الثابـــتة المميـــزة لهـــا وذلك عن طريق استعمال الاستدلال في علاقته بالملاحظة" (Frick, J-p: 1990, p. 114).

إن الفكـــر العلمـــي الوضـــعي المتمثل في الفلسفة الوضعية يركب بين العقل والتجـــربة الحـــسية، وأن هـــذا التركيب هو دحضي (**Refutatif**) واسترجاعي (**Recuperative**) في ذات الوقت، أي أن كونت لم يجمع بين عناصر مختلفة بصفة آلـــية بـــل بصفة واعية، آخذا من كل طرف ما يهم نسقه. وطبعا تبقى الفلسفة التقلـــيدية (الميتافيـــزيقا) غارقـــة إلى العنق في العقلانية. لكن ما هي أسباب هذا الاختلاف المنهجي حسب **كونت؟**

تخـــتلف إذن الفلـــسفة عـــن العلم منهجيا حسب أبـــي الوضعية. فالفلسفة (الميتافيـــزيقا) تقـــف في نظره عند استخدام العقل، أما العلم (الفيزياء طبعا) فهو يـــركب بـــين العقلانـــية والتجريبية الحسية. ويمكن تبرير الاختلاف المنهجي بين الفلـــسفة والعلم تاريخيا إذ إن الفكر الإنساني عموما والفكر الإنساني الفردي يمران

حـــتما، حـــسب **كونت**، بالعقلانية الميتافيزيقية قبل الوصول إلى النضج والكمال المميـــزين للفكر العلمي الوضعي. هذا والملاحظة في هذا الصدد أن مؤسس الاتجاه الوضعي يعتبر أن الميتافيزيقية مرحلة وسطى ضرورية للربط بين اللاهوت والعلم.

ومـــن الناحية النظرية يقول **كونت** إن الفكرة العامة في حاجة مبدئيا إلى ربط النظر بالوقائع الحسية أو العقل بمجال الحس أو كما يقول في خطاب حول الوضعية الاســـتنباط العقلي بالاستقرار الحسي. بيد أن الفكر الـــ "ماقبل وضعي" غير قادرا فعلا على أخذ الواقع الحسي في الاعتبار، وبالتالي على الربط بينه وبين العقل، فبقية الميتافيـــزيقا سجينة العقلانية وحدها. وبعبارة أخرى، إن طبيعة الفكر تؤهله مبدئيا وبالقـــوة بالربط بين العقل والحس. لكن مسألة الفعل والإنجاز تبقى رهينة نضجه وكمالـــه. والميتافيـــزيقا لم تصل حسب كونت إلى هذه المرحلة التي يمثلها الفكر الوضعي (Gouhier, H: 1933, p. 116).

ويميـــز رايشنباخ من ناحيته أخرى بين المناهج الميتافيزيقية (الفلسفية) والمناهج العلمـــية. ويعتبر أن أنموذج المعرفة عند (**أفلاطون وديكارت** وما عند **هيجل**) هو الرياضـــيات. فهو يقول في هذا الصدد ما يلي: "ويطلق على نوع الفلسفة التي تعد العقل مصدرا لمعرفة العالم الفيزيائي اسم المذهب العقلي (Rationalism). وينبغي أن نميـــز بدقة بين هذا اللفظ، وكذلك الصفة المشتقة منه، وهي عقلاني، وبين لفظ معقـــول، فالمعرفة العلمية يتم التوصل إليها باستخدام مناهج معقولة لأنهت تقتضي اســـتخدام العقـــل مطبقا على المادة الملاحظة، غير أنها ليست عقلانية إذ أن هذه الـــصفة لا تنطـــبق على المنهج العلمي، وإنما على المنهج الفلسفي الذي يتخذ من العقـــل مصدرا للمعرفة التركيبية المتعلقة بالعلم، ولا يشترط الملاحظة لتحقيق هذه المعرفة "فالفلسفة العقلانية ليست إذا علما، وهي تختلف عن العلم لأنها تستعمل في بحـــثها عن اليقين العقل وحده، بينما يربط العلم بين مجال الملاحظة الحسية وميدان العقل". و**ريشنباخ** يذهب إلى حد نقد الاستعمال الفلسفي للعقل. فالفلسفة تسقط في نظره في لغة مجازية غير دقيقة، لكن ماذا عن الفلسفة "التجريبية"؟

يعتني **ريشنباخ** بـــ "الفلسفة التجريبية" وبالفروق المنهجية القائمة بينها وبين العلـــم. ويعتـــبر رايشنباخ أن نموذج المعرفة عند التجريبيين هو الفيزياء. وهو يحدد علـــى النحو التالي الاتجاه التجريبـــي العام: "وهكذا فإن المنهج التجريبـــي، على

خـــلاف المذهب العقلي، يجعل للذهن دورا ثانويا هو إقرار النظام بين الانطباعات والأفكار، والنسق المنظم هو ما نسميه بالمعرفة" وهكذا فالفلسفة التجريبية لا تلغي دور العقل (أو الذهن)، بل يصبح هذا الدور ثانويا ويتمثل في تنظيم المادة التجريبية (ريشنباخ، هـــ: 1976، ص 172).

يـــبدو أن هـــذا الـــضرب من التفلسف لا يرضي تماما **ريشنباخ** المدافع عن العلمـــية. فهو فعلا يثني على الاتجاه التجريبـــي في الفلسفة، لكنه يعتقد جازما بأن الفلـــسفة التجـــريبية وقعت هي الأخرى في خطأ: "وهكذا يتحتم علينا الاعتراف بضرورة وجود خطأ أساسي في المذهب التجريبـــي. فقد سبق أن ارتكب صاحب المذهب العقلي خطأ النظر إلى المعرفة الرياضية على أنها أنموذج كل معرفة، وبذلك أراد أن يجعـــل مـــن العقـــل مـــصدرا لمعرفة العالم، في أساسياتها على الأقل. أما (المـــذهب)التجريبـــــي فقد صحح هذا الخطأ بأن أكد على أن المعرفة التجريبية مـــستمدة من الإدراك الحسي... ومع ذلك فالمعرفة المستمدة من الملاحظة تقتصر على الماضي والحاضر. أما معرفة المستقبل فليست من النوع المستمد من الملاحظة" فعـــيب الفلسفة التجريبية التي هي أفضل، حسب رايشنباخ، من الاتجاه العقلاني، يتمـــثل في كونها غير قادرة على التنبؤ في المستقبل وعلى معرفته إذ هي تقتصر على الماضـــي والحاضر فقط. لكن كيف نصحح هذا العيب. إن الإجابة تكون عنده في إطـــار نظـــرية في الاحـــتمالات وفي التخلي عن فكرة اليقين المطلق الكامنة وراء الفلـــسفة التجريبية. إن عيب هذه الأخيرة هو إيمانها بإمكانية الوصول إلى المطلق، وبالتالي فالعقلانية كامنة فيها وإن هي أرادت الخروج من هذا المأزق يتوجب عليها الابتعاد عن هذه العقلانية الخفية (ريشنباخ، هـــ: 1976، ص 173).

مـــن هـــنا، فالفلسفة بنوعيها عقلانية باعتبارها تنـــزع نحو المطلق. بيد أن العقلانـــية التجـــريبية أسلم وأصح. ومن ناحية أخرى، فالربط العلمي بين الحس والعقـــل يمر حتما، في نظر رايشنباخ، بالتخلي عن فكرة المطلق واستبدالها بفكرة الاحتمال.

إن مـــآل الفيـــزياء الكلاســـيكية حسب رايشنباخ، هو الإخفاق والفشل. والسبب عنده هو تشبثها الخفي باليقين المطلق رغم ربطها بين مجال العقل وميدان الحس. ويبرز رايشنباخ أنه في النهاية سيتغير صلب العلوم المعاصرة، حيث سيكون

الاحـــتمال سيد الموقف. ويبدأ المنحى الاحتمالي في نظره انطلاقا من القرن التاسع عـــشر الـــذي شهد زعزعة الهندسة الإقليدية ومعها فكرة اليقين الرياضي المطلق. والاختصار، يمكن تلخيص موقف **ريشنباخ** على النحو التالي:

تتميـــز الفلسفة، تأملية كانت أو تجريبية، بنـــزعتها العقلانية. بيد أن عقلانية الاتجـــاه التجريبـــــي خفية وهي واضحة وصريحة داخل الشق التأملي. وعقلانية الفلسفة مرتبطة في كلتا الحالتين بالتشبث بالمطلق.

أمـــا العلـــم فهـــو يربط بين الحس والعقل الاحتمالي. وواضح أن أنموذج العلـــم عـــند رايشنباخ هو العلم المعاصر الذي استبدل اليقين المطلق بالاحتمال (Kremer, M: 1970, p. 113).

كما يعتقد **كونت** و**ريشنباخ** أن العلم يربط، خلافا للفلسفة التي هي في كل الأحـــوال عقلية، بين مجالي العقل والحس. بيد أن وظيفة العقل ليست هي نفسها تمامـــا في كلتا الحالتين. فالعقل مصدر لليقين المطلق عند **كونت** بينما هو احتمالي ترجيحي لدى **رايشنباخ** (ريشنباخ، هـــ: 1976، ص 171).

بعد ذلك يؤكد **ريشنباخ** أنّ الفلاسفة، وخلافا لأهل العلم، يذكرون آرائهم الشخـــصية أو آراء الناس الآخرين فحسب ويضيف: "فلنتخيّل عالما عليه أن يقوم بتدريس الإلكترونيات على شكل تقرير عن وجهات نظر علماء الطبيعة المختلفة، من دون أن يذكر لتلاميذه أبدا ما هي القوانين التي تحكم الإلكترونيات. إن الفكرة تبدو مثيرة للسخرية" (ريشنباخ، هـــ: 1976، ص 190).

وعليه حسب **ريشنباخ** يمكن أن نستنتج الأفكار الأساسية التالية:

1. لا يمكن تدريس نتائج فلسفية ثابتة، والعكس يحصل عندما يتعلق الأمر بالنتائج العلمية، فباستطاعة أستاذ العلوم أن يدرّس حقائق علمية يقينية، بينما يستحيل على أستاذ الفلسفة أن يقدّم إلى طلبته معلومات فلسفية ثابتة.
2. لا يذكـــر الفلاســـفة في نهاية الأمر إلا أفكارهم الشخصية أو يرددون أفكار غيرهـــم. و**ريـــشنباخ** يـــؤكد على الطابع الذاتي للنتائج الفلسفية وعلى البعد الموضوعي للنتائج العلمية.
3. وهذه الذاتية تؤدي إلى عدم الإجماع وإلى التناقض، بينما ينجم عن الموضوعية النتائج العلمية.

وهكـــذا لم يجـــد **ريشنباخ**، على هذا المستوى بالذات، عن سلفه الفرنسي **أوجـــست كونت** إذ نراه يحدّد في هذا النص ذي البعد التربوي الفارق بين نوعية النتائج العلمية ونوعية النتائج الفلسفية بنفس الطريقة، ويبرز كما فعل أبو الوضعية أن الأولى محـــلّ إجمـــاع أمّا الثانية فلا. والملاحظ هنا أن الاختلاف الأساسي بين الرجلين والمتعلّق بالمرجعية العلمية يبقى قائما.

يـــتفق **ريشنباخ** إذن مع **كونت** على أن النتائج العلمية يقينيّة، بمعنى أنها محلّ إجمـــاع، وعلى أنّ النتائج الفلسفية (الميتافيزيقية) لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تحظـــى بنفس الصفة إذ هي في حالة تناقض مستمر لا طائل تحته. بيد أن الإجماع العلمي يتصل عند كونت بحقائق مضبوطة ومحددة بينما يتعلق الأمر لدى **ريشنباخ** بالاحـــتمال، والـــسبب هو اختلاف في الأنموذج العلمي الذي يتراوح بين العلم الحديث والعلم المعاصر (Bernard, E: 2002, p. 95).

والفلسفة العلمية ذاتها، الحريصة على تقليد العلوم وعلى الابتعاد عن الفلسفة التقلـــيدية، لم تبحث في الواقع الحسّي مباشرة بل في معاني النصوص العلمية. وهي لعمري طريقة غير صريحة للبقاء في ميدان العقل والتأسيس والتفلسف، لأن البحث عن المعاني تأسيسٌ، وهو عين العقل.

وخلاصـــة القـــول، لا بد فعلا من الإقرار بواقعية العلوم كما فهمناه ويقينية نتائج هذه العلوم بالمعنى الذي ضبطناه والذي أكد عليه كل من كونت **وريشنباخ**. والأكيد أن الصفة الأولى تؤدي إلى الصفة الثانية التي تصبه بهذا الشكل نتيجة لها.

وعمـــوما يمكن تلخيص الموقف الوضعي الرسمي ممثلا بـــ **كونت وريشنباخ** وبمنتهـــى الإيجـــاز علـــى النحو التالي: تتميز الفلسفة السقراطية مهما كان لونها بالعقلانـــية في الموضـــوعات والمناهج، وبالتناقض وعدم الإجماع من ناحية نوعية النتائج. أما العلم ونموذجه الفيزياء الرياضية عند الوضعيين فهو يختص بالواقعية من زاويـــة نوعـــية الموضوعات والمناهج، وباليقين في النتائج. إن هذه الواقعية العلمية، كمـــا لمـــسنا، مرتبطة بالتحليل الرياضي، وإن هذا الأمر يهم العلم الحديث الذي يفكـــر فـــيه **كـــونت** والعلـــم المعاصـــر الذي يتخذه **ريشنباخ** أنموذجا لفكرة الإبـــستمومولوجي. وهـــذه الفكرة صحيحة ويبررها تاريخ الفيزياء الذي يبرز أن الحقيقة العلمية تنتج عن اقتران التجربة والرياضيات.

المراجع:

- عبد القادر بشتة: الفلسفة والعلم، دار الطليعة، بيروت ط1، 2002.
- جورج ويلهلم فريدريش هيجل: محاضرات في تاريخ فلسفة، ترجمة خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1986.
- هانـــز ريشنباخ: نشأة الفلسفة العلمية، ترجمة: فؤاد زكريا، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979.
- 1998: Le positivisme est un culte des morts, Raquel Capurro.
- , Angèle Kremer-Marietti: Le positivisme, Angèle Kremer-Marietti P. U. F. , 1982, 1993. Réédition: Le positivisme d'Auguste Comte, L'Harmattan, 2006.
- P. Arbousse-Bastide: Matérialisme et positivisme, Paris, 1974.
- P. Arnaud, Le «Nouveau Dieu», préliminaires à la politique positive, Paris, 1973.
- «Auguste Comte»: n. spéc. 3 des Études philosophiques, consacré au cent cinquantenaire de l'Opuscule fondamental ou Plan des travaux scientifiques nécessaires pour réorganiser la société, juill. - sept, 1974.
- J. -P. Frick: Auguste Comte, ou la République positive, Nancy, 1990.
- H. Gouhier: La Jeunesse d'Auguste Comte et la formation du positivisme, 3 vol. , Vrin, Paris, 1933-1941: I. Sous le signe de la vérité, 1933.
- L. Kolakowski: La Philosophie positiviste, Paris, 1976.
- A. Kremer-Marietti: Auguste Comte et la théorie sociale du positivisme, Paris, Gonthier, 1970.
- : Les implications *philosophiques* P. U. F, 2002.Bernard d'Espagnat
- Sandra Laugier: Philosophie des sciences - Tome 1: Expériences, 2008.Vrinthéories et méthodes. Editeur